مناقشات ـ ٤ ـ

سيد البحراوي قارئاً

تعقيبا على ما جاء في مقال سيّد البحراوي في الآداب ٢/١، ٢٠٠٠، ص ٩ ـ ١٠

نضال الصالح

نشرتْ مجلة الآداب في عددها الماضي مراجعةً لموادّ عددها السابق، بتوقيع سيّد البحراوي. وكان لمادّتي «المقدّس والمدنّس في **مجاز العشق**» نصيبٌ من أحكامه القيميّة الدّالة على أنّ ثمّة قطيعةً تامةً بينها وبين أبجديّات الممارسة النقدية بعامّة، ونقدِ النقدِ بخاصّة.

وقبل أن أبدأ بتفكيك خطل المقدّمات والنتائج في تلك المراجعة، سأشير إلى أنّني أحد الذين يكنّون تقديراً واحتراماً كبيريْن لمجلّة الآداب لرصانتها المعتادة ودأبها المتواتر في أن تكون دوريةً ثقافيّةً عربيّة مميّزة، كما أفصحتُ عن ذلك في اتّصالٍ هاتفيٍّ تفضّل به الدكتور سماح إدريس قبل أن يَدْفع بمادتي المذكورة إلى النشر.

وقبل ذلك أيضاً أجد نفسي مدفوعاً إلى القول إنّه فور قراءتي لمادتي المنشورة هتفتُ للدكتور سماح لأعبِّر له عن ضيقي بما لَحِقَ بالنصّ الأصل ـ الذي يربو على ست عشر صفحة ـ من حذوفاتٍ أضرّتْ بهذا الأصل، وشوّهتْه، وجعلتْه أشبهَ ما يكون بعملٍ مقطّع الأوصال. غير أنّ شواغل الدكتور سَماح الكثير حالت دون أن أنقل إليه ما انتابني من ضيق، وخوفٍ، بلى خوف، من أن يُنسَب ذلك التشويهُ إليّ ؛ وقد حدث*.

وبعد، فإنّني سأتجاوز تلك النعوت الجائرة والأحكام القيمية المتعسّفة التي ألصقها البحراوي بمادّتي، من مثل «إقحامي» لكلام عن نزار قبّاني، واختتامي للمادة «بعبارة فضفاضة»، معلّلاً هذا التجاوزَ بما أشرتُ إليه آنفاً من إخضاع أَحَدِهم في المجلّة هذه المادّةَ لسرير «بروكُست». لكنّ ما لن أتجاوزه، وممّا لا ينبغي تجاوزُه، بسبب دلالته على قصورٍ معرفيٍّ واضح بإنجازات النقد، هو تلك الصفة التي أطلقها الأستاذ البحراوي على لغتي النقدية، التي رأى أنّها فضفاضة لا تدلّ على شيء. ومثّل لذلك بتسميتي لنظرية المحاكاة الأفلاطونية بالنظرية الخلقية، لا الأخلاقيّة، وباستخدامي لعباراتٍ لا يدري ـ كما يقول ـ «من أين تسلّلتُ إليها»، مثل: «المحرق السرديّ»، و«أشكال تخطيب الزمن».

ويبدو أنّه عليّ، بدايةً، أن أذكّر البحراوي ببدهيات الممارسة النقديّة التي يَعْرفها طلاّبُ المرحلة الأولى من الدراسات العليا في جامعاتنا العربيّة؛ ومن تلك البدهيّات الدقّةُ في مقبوسات الباحث. فوصفُ نظريّة المحاكاة الأفلاطونيّة بـ «الخلقيّة» ليس لي، بل للناقد الإنكليزيّ غراهام هو، وهو وصفٌ مستلٌّ من كتابه المترجم إلى العربيّة بعنوان: **مقالة في النقد**. وإذا شاء البحراوي أن أقدّم له قرينةً على ما أقول، فإنّني أحيله على الصفحة الرابعة والثلاثين من الكتاب المذكور، وإلى الفصل المعنون بـ «النظرية الخلقيّة» بخاصة. وإذا شاء قرينةً ثانية،

---

١ ـ تعليق الآداب: أرْفق الأستاذ نضال الصالح تعقيبه هذا بجملة «حذوفات» ارتكبتْها هيئةُ التحرير، ويَعْتقد انّها تشكّل «روابطَ مهمةً بين أجزاء المادة». ولكنْ، بغضّ النظر عن تذكير القارئ بحقّ هيئة التحرير في حذف كل «إطالة» (وذلك بموجب ما جاء في صدر الصفحة الأولى من الآداب)، فإنّنا نشير إلى التالي بعد مراجعتنا للحذوفات المذكورة: أ) لم نحذفْ مقطعاً كاملاً توهّم الكاتبُ ـ ربّما بدافع استنفاره للهجوم على البحراوي ـ أنّنا حذفناه، وهو المقطع الوارد في أسفل العمود الأول من صفحة ٨٨ !. ب) إنّ أكثر ما حذفناه كان استشهادات من الرواية لا تُثْبت النقطةَ التي حاول الكاتبُ أن يبيِّنها (مثل قوله إنّ بعض الشخصيّات «فائضة على جسد الرواية ونافلة في عملية السرد» أو حديثه عن تماهي الراوي بالشخصيّة الروائية، أو غير ذلك ممّا لا علاقة له البتةَ بالكشف عن المدنّس والمقدّس في هذه الرواية). ج) إنّنا حذفنا كثيراً من الإطناب والترهل اللذيْن كانا سيثقلان النصّ: فما الفرق مثلاً بين هذه الألفاظ التي تأتي في جملة واحدة: «تعرية الواقع» و«الكشف عن مكوّنات قصوره وضعفه وتخلُّفه»؟ وما الفرق بين «تنصاع له ولا تبدي تمرّداً عليه»؟ والحقّ أنّنا نعتقد أنّنا شذّبنا نصّ الصالح وحسّناه بهذه «الحذوفات»؛ ولعلّنا أخطأنا في اعتقادنا ذاك.

فليسمحْ لي بأن أنقل له، بالحرف، ما ورد في الكتاب على لسان «غراهام هو» نفسه، الذي يقول: «فافلاطون، مرة أخرى، يستطيع أن يُخْبرنا بالضبط ما هي مطالبه **الخلقية** في الأدب، لأنّه قادر على إرجاعها إلى مخططٍ **خلقيّ** واضح الصياغة» (ص ٣٩).

وليعذرْني السيد فيما يخصّ سخريتَه الجارحة من استخدامي عبارتَي: «المحرق السرديّ»، و«أشكال تخطيب الزمن»، إذا وصفتُ إمكاناته المعرفيّة بحقل السرديّات المعاصرة بالنحول والهزال وبقصورها الواضح في تتبُّع إنجازات النقد الحداثيّ. وسأكتفي بإحالته على بعض المُتَرجَم إلى العربيّة من هذه الإنجازات، وسأبدأ ممّا عدّه تسللاً ثانياً، أيْ ممّا أطلقتُ عليه «أشكال تخطيب الزمن»، متمنّياً أن يتّسع صدرُه لإعلامه بأنّ السرديّات ـ منذ الشكلانيّين الروس، وربّما قَبْلهم ـ تُفرّق بين «القصّة Histoire»، أي: «المواد قبل اللفظيّة في نظامها التاريخيّ»، بتعريف والاس مارتن في كتابه **نظريات السرد الحديثة** (ص ١٣٩)، وقبل ذلك بتعريف أعلام السرديات أمثال: جيرار جينيت، ورولان بارت، وتزيفيتان تودوروف وآخرين... وبين «الخطاب Discoure»، الذي يعني «التغييرات التي يُحدثها الساردُ في موادّ القصّة قبل اللفظيّة»، بتعريف والاس نفسه في كتابه المذكور آنفاً (ص ١٤١)، وبتعريف آخرين ممّن عدّدتُ مِنْ أولئك المشتغلين بحقل السرديات أيضاً. وغير خافٍ أنّ ثمّة تبايناً بين نظام ظهور الأحداث في الواقع، ونظام ظهورها في النصّ الإبداعيّ. وغيرُ خافٍ أيضاً أنّ انتهاكات السارد لخطيّة الزمن بمعناه الكرونولوجيّ، بل «التغييرات» بتعبير والاس، تنتمي إلى مفهوم «الخطاب»، إذ يعيد هذا الساردُ «تخطيب» الزمن الواقعيّ، ويعيد إنتاجَه من جديدٍ داخل النصّ.

أمّا فيما يتّصل بتسميتي «المحرق السرديّ»، فلعلّ سيد البحراوي يعرف أنْ ليس ثمّة ما يصادِر على الباحث، أيّ باحثٍ، ابتكارَ المصطلح الذي يراه مناسباً، والتأسيسَ لهذا المصطلح في أكثر من فعالية نقديّة. ولعلّه يعرف أيضاً أنّ علّة العلل في مشهدنا النقديّ المعاصر استسلامُ المشتغلين بهذا المشهد للمنجَز النقديّ، وتبعيتُهم، وذيليتُهم، واكتفاؤهم بجهودِ سابقيهم، وبإحالة كلّ شيء على ذلك المنجَزِ دائماً وأبداً.

أعني بـ «المحرق السرديّ»، يا باشا، ما تعدّدتْ تسمياتُه في السرديّات بـ «البؤرة السرديّة» أحياناً، و«وجهة النظر» أحياناً ثانية، وبـ «التبئير» أحياناً ثالثة، وبـ «المنظور السرديّ» أحياناً رابعة، وبـ «الرؤية السرديّة» أحياناً خامسة، و... إلى آخر تلك القائمة. وكلّ هذه التسميات تشير، بعامّةٍ، إلى موقع الراوي مِنْ مرويّهِ. ولا يعني ذلك ولعاً بمغايرة المنجَز، بقدر ما يعني حقّاً لي ولسواي في ابتكار المصطلح الذي يبدو أكثر اتّساقاً مع معطيات النصّ الإبداعيّ الذي يشتغل الناقدُ به وعليه... شريطةَ أن يبدو ذلك معلّلاً، وأن يكون دالاً على نفسه لا على سواه.

ثمّ لا أدري كيف يوفّق البحراوي بين وصفه المادّةَ بأنّها «تعالج رواية نبيل سليمان معالجةً نقديةً»، بمعنى أنّه يقرّ بانتمائها إلى حقل النقد، ووصفِه لها، في موقع آخر من مراجعته، بأنّها «أقربُ إلى أبحاث الطلاّب». ولا أدري أيضاً كيف يبيح لنفسه القول: «وهي بلا شك...»، مطوِّحاً بذلك بأهمّ أقانيم الفكر الماركسيّ، وهو ـ في حدّ علمي ـ من المؤمنين به وأمل أن يميل برأسه إليّ لأهمس في أذنيه قائلاً له: إنّك قارئٌ رثٌّ للإبداع يا أفندم، إذ ليس صحيحاً أنّ الإبداع «لا بدّ أن يمسّ ـ بهذه الدرجة أو تلك ـ التابوهاتِ المستقرّةَ في المجتمع»؛ فثمّة عشرات، بل مئات، النصوص الروائيّة التي شكّلتْ منعطفاتٍ مهمّةً في مسار الجنس الروائيّ دون أن يكون لها صلة بأيٍّ من التابوهات.

وبعد، فلعلّ الأستاذ البحراوي يسمح لي بأن أعرِّفه، إذا كان ممّن لا يتابعون المشهدَ الثقافيَّ العربيّ، إلى أنّ أصل المادّة الشائهة المنشورة في الآداب جزءٌ من كتابٍ أُعدّه للطبع بعنوان: **أسئلة المقدّس والمدنّس في الرواية العربيّة، نبيل سليمان نموذجاً**، كما أشرتُ إلى ذلك في أكثر من مناسبة في الصحافة الثقافيّة العربيّة، ومن بينها **أخبار الأدب** القاهريّة (التي يكتب البحراوي فيها، ويبدو أنّه لا يقرأ سوى ما يكتبه فقط). وأشير أيضاً أنّ هذا الكتاب هو الكتاب النقديّ الرابع لي بعد: **قضية الأرض في الأدب الروائيّ الفلسطينيّ**، وهو أطروحتي للماجستير التي نالت تقدير «الشرف» في جامعةٍ لا تبيع شهادة الماجستير أو الدكتوراه بخمسمئة دولار، وبتحكيم ثلاثةِ أساتذةٍ يمثّلُ كلٌّ منهم قامةً ثقافيّةً بعينها، ولم يكن ليخفى على هؤلاء ما تفتّقتْ عنه عبقريةُ البحراوي الذي وَصَفَ المادّةَ بالضعف ويأتي هذا الكتاب أيضاً بعد كتابي: **تحوّلات الرمل، الحكائيّ والجماليّ في القصّة القصيرة في قطر**، الفائز بجائزة الشارقة للإبداع العربيّ في مجال النقد لعام ١٩٩٩، وبتحكيم أساتذةٍ مشهودٍ لهم بالعلم والمعرفة. ويأتي أيضاً بعد **المغامرة الثانية، دراسات في الرواية العربيّة**، الصادر عن اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق... بالإضافة إلى أطروحتي الحاليّة لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان: **النزوع الأسطوريّ في الرواية العربيّة المعاصرة**... وكنتُ قد نشرتُ، قبل ذلك كلّه، ثلاث مجموعات قصصيّة، وروايةً، أُولاها صدرتْ عن الهيئة المصريّة العامة للكتاب بالقاهرة سنة ١٩٨٩، ونلتُ ثلاثَ جوائز أدبيّة على المستوى العربيّ، وأربعَ شهاداتِ تقدير من جهات ثقافيّة عربيّة مرموقة، إحداها الهيئة المصريّة العامة للكتاب. ونشرتُ أيضاً دراسات نقديّة متفرّقة في دوريّات ثقافيّة عربيّة محكّمة. كـ **عالم الفكر** و**البيان** الكويتيتيْن، و**المعرفة** و**الموقف الأدبيّ** السوريتيْن، وسوى ذلك كثير.

وبعد أيضاً، فإنّني آمل ألا يكون الأستاذ البحراوي من أولئك الذين يحلو لهم أن يمنحوا صكوك الغفران لمن يشاؤون، ويحجبوها عمّن يشاؤون...

حلب